# «فان ديبك» وعلم النص

عرض: عبد القادر بوزيده

يعرف بعض المهتمين أو المشتغلين بالدراسات اللغوية والأدبية في بلادنا وبلدان عربية أخرى بعض الأشياء عن بعض المناهج الحديثة التي صاغها علماء أجانب، واستخدموها لدراسة النصوص عموما، والنصوص الأدبية على وجه الخصوص. ونجد في بعض الدراسات العربية الموضوعة أو المترجمة ذكرا لبعض هؤلاء العلماء (من الفرنسيين والانجلوسكسونّيين خاصة)، واستفادة من النظريات التي صاغوها والأدوات التي شحذوها. لكن قلّ ما نجد من يعرف شيئا كثيرا أو قليلا عن بعض العلماء الآخرين الذين لعبوا دورا كبيرا في تطوير النظريات والدراسات الخاصة بالنصوص اللغويّة والأدبيّة، لا سيما إذا كان هؤلاء العلماء ينتمون لثقافات غير الفرنسية والانجلوسكسونيّة. من بين هؤلاء «تون فان ديبك» (Teun Van Dijk) الذي يعد من أهمّ المختصيّن

في الدراسات المتعلقة بالنصّ والذي نحاول في هذا العرض التعريف ببعض آرائه في هذا المجال. وقبل ذلك أريد أن أنبه إلى الأمور التالية:

- اعتمدت في هذا العرض أساسا على الدراسة التي نشرها «فان دييك» في كتاب «نظرية الأدب» تحت عنوان: «النص، بناه ووظائفه» (1). وقد وقع الاختيار على هذه الدراسة لأنه يمكن اعتبارها حوصلة تعرض وتلخّص النتائج التي توصّل إليها «فان دييك» في دراسات كثيرة سابقة (2).

- هذه الدراسة ترجم قسم منها في العدد الخامس من مجلّة «العرب والفكر العالمي» من طرف جورج أبي صالح، لكن قسما هاما من هذه الدراسة لم يترجم؛ كما أنّ الترجمة، رغم الجهد الذي بذله صاحبها، لا تشفي الغليل، ويمكن أن تستغلق في بعض أجزائها على القارئ غير المطلع اطلاعا واسعا على الدراسات المنجزة في مجال علم النصّ، خاصة وأن بعض المصطلحات التي ارتضاها المترجم غير متداولة بكثرة، وقد استخدمت استخداما يدعو أحيانا إلى التحفظ(3).

- حاولت في هذا العرض تقديم بعض آراء «فان دييك» بأكبر قدر من الأمانة، فلجأت أحيانا إلى الترجمة المباشرة خاصة عندما يتعلق الأمر بصياغات دقيقة ومكثفة ذات طابع تجريدي، وأحيانا أخرى إلى التلخيص أو الشرح، كما حاولت تبسيط آرائه قدر الامكان حتّى تتم الفائدة.

- لكن صعوبات اعترضتني في هذا السبيل؛ وهي صعوبات تتعلق أساسا بمشكل المصطلحات في العربيّة التي تتميّز بفوضى كبيرة تعيق عمليّة الاتصال والتفاهم وانتقال الأفكار، كما تعيق التطوّر العلمي نفسه. وقد حاولت ما أمكن استخدام المصطلحات الأكثر تداولا والتي بدا لي أنّها الأكثر دقة.

- كما حاولت بين الحين والحين تقديم بعض التعليقات عندما بدا لي ذلك أمرا ضروريا أو مفيدا، مستندا أحيانا إلى بعض الدراسات التي أصدرها مختصون آخرون في مجال علم النصّ.

❀ ❀ ❀

لقد أصبح مصطلح النص من المصطلحات المتداولة بكثرة في الدراسات اللغويّة والأدبيّة الحديثة. ولكن ما النص؟

حتى نقف على ذلك، يجب، كما يرى «فان دييك»، أن نتعرّف على الخصائص الأساسيّة للنصوص بأن نستخرج ليس خصائصها «الداخلية»، أي البنى المختلفة التي تميّزها فحسب، بل خصائصها «الخارجية» كذلك، أو بعبارة أخرى، الشروط التي ترافق ظهورها في سياقات خاصة، ووظائفها والآثار المترتبة عنها في هذا السياق أو ذاك كما يجب أيضا تحديد العلاقات الموجودة بين النصّ والسياق.

وليست الاختصاصات اللسانية والأدبيّة هي وحدها التي تهتّم بدراسة النصوص (وسياقاتها)، بل إن علوما واختصاصات متعددة أخرى تهتّم بها أيضا مثل علم النفس، والسوسيولوجيا، والانتروبولوجيا الخ... ومع أن جوانب أخرى من النصوص هي التي تشكل موضوع الدراسة في هذه العلوم، إلاّ أنّ النصوص يمكن أن تدرس **بطريقة تركيبية** (يلجأ فيها إلى اختصاصات مختلفة ويدرس فيها النصّ من زوايا متعدّدة في الوقت نفسه (Interdisciplinaire)؛ وذلك مثلا بواسطة تحليل الخصائص **الأكثر عموميّة** التي تميّز النصوص واستخدام اللغة. وبعد أن نقوم بالتحليل على هذا النحو، يمكن أن نفحص عن كثب إلى أيّ حدّ تتميّز النصوص عن بعضها من حيث **البنية والوظيفة**. إن هذه الطريقة ذات الطابع التركيبي والعام في معاينة النصوص هي، في نظر «فان دييك»، التي يقترحها علم النص.

إنّ الذهن لينصرف تلقائيا إلى الدراسة الأدبيّة عندما نتحدث عن النص، لكن مجال علم النصّ **أعمّ** من مجال علم الأدب، ذلك أنّ هذا الأخير لا يدرس مبدئيا إلاّ النصوص الأدبيّة. من جهة أخرى، وبما أنّ النصوص هي أشكال خاصة من أشكال استخدام اللغة، فإنّ مجال علم النصّ **يتقاطع جزئيا** مع مجال اللسانيات. لقد اهتمّت اللسانيات قبل كل شيء بدراسة الجمل ومكوّناتها، وسعت أحيانا إلى صياغة مبادئ النحو؛ أمّا علم النصّ فهو يدرس ملفوظات اللغة في عمومها والأشكال والبنى الخاصة بها التي لا يمكن وصفها بواسطة النحو.

هناك سؤال يؤرق منذ وقت طويل المشتغلين بالأدب واللغة على وجه الخصوص: «كيف نحلّل نصّا»؟

إن مثل هذا التحليل يكتسي طابعا نظريا وعمليا في الوقت نفسه، كما يرى «فان دييك»؛ فقد نتحدّث عن بعض الخصائص التي تميّز كل النصوص عموما (مثل خاصية الانسجام (Cohérence)؛ فنعرض هكذا **مقولات نظرية**، وقد ندرس نصّا بعينه ونحدّد عددا من خصائصه. وهكذا يمكن أن نعرض بعض الأحكام حول بنية النص الاشهاري **عموما**؛ كما يمكن أن ندرس نصا إشهاريا **بعينه.** وزيادة على هذه المقاربة النظريّة والوصفيّة، يمكن أن **نطبّق** نتائج هذين النوعين من التحليل: النظري والوصفي، فنصوغ تعليمات من أجل إعداد نصوص اشهارية حتى يتم ذلك الاعداد بأقصى قدر من الفعاليّة بناء على نتائج الدراستين السابقتين.

قد يتساءل الواحد: مالنا وهذه النصوص الاشهاريّة، وما العلاقة التي تربطها بالأدب وبدراسة الأدب؟

إن علم النصّ، كما سبق، يتناول النصّ عموما وليس النصّ الأدبي فحسب؛ ثمّ إن دراسة النصّ الأدبي هي أيضا، رغم تميّزها، لا تخرج عن هذا الاطار عموما.

إن الشاعر الجاهلي عندما يقول قصيدته كان، رغم تفرّده الذي لا شك فيه، يصوغها ضمن أعراف ووفق أنماط تحدّدت خلال الممارسات الشعرية المتعاقبة، وهي أعراف وأنماط يمكن التعرّف عليها من خلال الدراسة، وقد كان الشاعر يستخدم تلك الطرق «النمطية» في قول الشعر، التي أثبتت فعاليتها، حتى يبلغ بقصيدته أقصى قدر من التأثير.

لقد سعت بعض الاتجاهات إلى تغليب الدراسة «التطبيقية» للنصوص الملموسة حرصا على تأكيد الطابع المتميّز للإبداع الأدبي، وردّا على تلك الدراسات الموغلة في التجريدات النظرية أو التي تريد قسر النصوص قسرا على أن تندرج ضمن الأطر النظرية التي صاغتها. لكن الدراسة التطبيقية الملموسة غير ممكنة دون أساس نظري؛ وبدون النتائج النظرية - الوصفيّة المتحصل عليها لا يمكن القيام بأي تطبيق في رأي «فان دييك». وعلى العكس من ذلك، لا معنى لصياغة نظرية إذا كنا لا نستطيع، من خلال عملية الوصف، أن نختبر صحّتها بطريقة تجريبية أو إذا كنا لا نستطيع، انطلاقا منها، أن نقوم بتطبيقات فعالة. إن هذه الأنماط الثلاثة من التحليل والتعامل مع النصوص ضرورية.

ما هي المبادئ العامة لتحليل النصوص؟

يرى «فان دييك» أنّ هذه المبادئ مماثلة جزئيا لمبادئ اللسانيات العامة من جهة، ومماثلة جزئيا لمبادئ العلوم الاجتماعية من جهة أخرى. ويلخص بعض هذه المبادئ في النقاط التالية:

1 - إن النصوص تستعمل دائما في سياق محدّد؛ لهذا فإنّ تحليل النصّ وادراكه يتطلب التحليل والادراك المتزامن للسياق.

2 - إن تحليل النص و/أو السياق هو منتوج لذات محللّة. فهو إذن ليس نتيجة

لخصائص موضوعية لوحظت في النص والسياق فحسب، بل هو أيضا وخاصة بناء ذهني لخصائص تسبغها الذات المحللة على النصّ أو السياق بطريقة يتم فيها تبادل التأثير بين الذات المحلّلة وموضوع التحليل. وفي هذا يقترب «فان دييك» إلى حدّ بعيد من «فولفغونغ ايزير» (Wolfgang Iser) الذي كان يعتبر القراءة تفاعلا بين القارئ والنصّ.

3 - إنّ التحليل هو نصّ أيضا، أو ما يسمّى بـ «ما بعد - النصّ» أو «النص - الواصف» (Méta - texte)، لهذا يجب صياغته وإدراكه في لغة وضمن سياق **تواصلي** حتى يكون مفهوما، وهو ما يفرض خضوعه للقواعد المتعارف عليها لدى الجماعة موضوع الاتصال. لذا، يجب أن يخضع التحليل العلمي للقواعد والمقاييس السائدة في **الاتصال العلمي** (على عكس الكثير من الدراسات «الحديثة» عندنا)؛ وهو ما يستتبع من بين أمور أخرى، أن يكون التحليل **مفهوما** ويمكن استعادته، أن يكون مؤسسا نظريا وأن يكون موجها نحو قضايا وأهداف محدّدة سلفا.

4 - إن النصوص لها خصائص **متنوّعة**؛ لذا من الملائم تحديد وتمييز مستويات مختلفة من التحليل؛ وفي كل مستوى من هذه المستويات يتعيّن دراسة البنى المميّزة لهذا المستوى. وفي هذا المجال يبدو أنّ هناك اتفاقا بين «فان دييك» و«يوري لوتمان» (Iouri Lotman)، أحد أكبر المختصيّن في الدراسات السيميائية؛ إذ يرى «لوتمان»، على أساس من تحديده للنصّ، ضرورة تحديد مستويات مختلفة عندما نقوم بوصف النصّ، وعدم الخلط بين عمليات الوصف لمختلف مستويات النص هذه، وكذا التحديد الواضح لكل مستوى من المستويات التي يتم وصفها؛ كما أن عملية الوصف لأي من تلك المستويات يجب أن تتم على

أساس من الوعي بأنه بنية، ولا بد إذن أن ندرسه بصفته تلك وأن نستكمل دراسته لا أن تتوقف عند مظهر من مظاهره فحسب (4).

ويؤكد «فان دييك» من جهته ضرورة رصد العلاقات المتبادلة والتداخلات بين مستويات التحليل في اطار **وصف نصّي مدمج** (intégré)؛ كما يمكن في نظره ربط كل مستوى من هذه المستويات على حدة، أو في علاقة مع وحدات أخرى، ببعض خصائص السياق.

5 - عند تحليل السياق يتعين كذلك تمييز أنواع مختلفة من السياقات: فنميّز عموما بين السياق التداولي (pragmatique) والسياق النفسي (الادراكي - الانفعالي) والسياق الاجتماعي - الثقافي الخ...

لكن ما هو مفهوم «النص» الذي نحن بصدد الحديث عنه؟

انه لمن الصعوبة بمكان تحديد مفهوم النصّ تحديدا واضحا يلم بجميع جوانبه. وانّ العناصر التي تساهم في تكوّن النص وتدخل في تكوينه لمن الاختلاف بحيث دفعت بعض الدارسين، نظرا لحدود معارفنا الراهنة، إلى الاقرار بالضرورة المنهجيّة لاختيار زاوية معينّة ينظر من خلالها إلى النص، وهو، بطبيعة الحال، اختيار مؤقت (5).

أمّا «فان دييك» فهو يرى أن تحديد الشيء لا يتأتى إلاّ بعد دراسة مجمل خصائصه وإدراكها. لهذا لا يمكن **مبدئيا** تقديم تحديد لمفهوم النصّ إلاّ بعد الإحاطة بخصائصه، وهي تحديدا المهمة المنوطة بعلم النصّ. ما العمل إذن؟ يجب التمييز بين **المفهوم التلقائي والمفهوم النظري** للنصّ. ويرى «فان دييك» أنه من الضروري بدءا تحديد ما نقصده **تلقائيا** عندما نستخدم مصطلح «النص». وإذ نحدّد هكذا **موضوع** علم النصّ، وهو تحديد مؤقت، فانه يمكن لنا أن نحدد

بعض المهام التي يسمح لنا إنجازها بالتقدّم شيئا فشيئا نحو **اعادة بناء نظري** لمفهوم النص.

يعتبر «فان دييك» «نصّا» النصوص المنطوقة والمكتوبة على حد سواء، كما يرى النصوص باعتبارها ملفوظات لغويّة ذات **أشكال خاصة** وهو ما يعني:

1 - أن الموضوع الأساسي لعلم النصّ هي نصوص اللغة الطبيعيّة وليس النصوص المتعلقة بنظم سيميائية أخرى.

2 - ليس كل ملفوظ في لغة طبيعية نصاً. لذا يجب التمييز بين ملفوظات نصيّة وملفوظات غير نصيّة.

إن أي ملفوظ إنما يكتب أو ينطق في إطار تعاقب زمني خطي (linéaire) ويكتسب «وحدة» معيّنة. والمقياس الأهم لتحديد «وحدة» النصّ هو المضمون في نظر «فان دييك»: إنّ النصّ لكي يشكّل «وحدة» لا بدّ أن يكون **منسجما** (cohérent) وهناك مقياس آخر وهو مقياس وظيفي: يعني أنّ نصّا ما يعتبر «وحدة» إذا كان، ككل، يؤدي وظيفة محددّة.

ويناقش «فان دييك» بعض التصورات المرتبطة بتحديد مفهوم النصّ، إذ قد يذهب البعض إلى اعتبار النصّ نتاجا **لذات متحدّثة وحيدة.** لكن هذا التقييد يطرح، في نظر «فان دييك» بعض المشاكل؛ ذلك أننا قد نحمل في مناسبات عدة على اعتبار بعض الحوارات، والأحاديث وأشكال أخرى من أشاكل التبادل الاتصالي، نصا واحدا رغم أنّ هذه الخطابات أنتجها أكثر من متحدث. وفي هذه الحالة فإن **استمرارية وانسجام** وظائف ومضمون النص الحواري، في كليته، يلعبان دورا جوهريا في اعتبار الخطاب «نصا».

ورغم أن التمييز بين النصّ، كوحدة، واللانصّ، ليس دائما شيئا سهلا، إلا أننا نمتلك في أغلب الأحوال مقاييس نصيّة أو سياقية تسمح لنا من التأكد بأننا أمام نصّ: مثلا الإشارات الشكلية الصريحة، كأن تنعت بداية النصّ ونهايته على هذا النحو.

هذا هو عموما المفهوم الذي نحمله **تلقائيا** عن النصّ؛ لكن نظريات النص العلمية، في نظر «فان دييك»، إنما تبني مفهوم النصّ بناءا نظريا. ولأن النظرية هي، مبدئيا، مقاربة عامة للأشياء التجريبية الملموسة، فإن المفهوم النظري للنصّ قد لا يتطابق دائما تطابقا تاما مع النصوص المنتجة والمدركة في وضعية تواصلية فعلية، ذلك أن ملفوظات الذوات المتحدثة لا «تلتقي» دائما مع قواعد «الانسجام» التي تصوغها النظرية، إذ أنّ ذواتا متحدّثة قد تنتج في بعض الحالات نصوصا غير منسجمة، كما في حالات الهذيان مثلا. وقد عدت بعض كتابات جان جاك روسو، في دراسات سيكولوجية حديثة، على أنها نوع من الهذيان لا تخضع لمقاييس الانسجام المتعارف عليها. بل إن بعض النظريات كتلك التي وضعها «جاك دريدا» تكاد تنفي مقولة «الانسجام» هذه، وتعتبر النص، أي نص، مجموعة من العناصر المتباينة التي لا تعمل على انسجام النصّ بل على انفجاره.

لكن دراسات أخرى حاولت أن تحدد جملة من المعايير التي يعرف بها النصّ أو **النصيّة**، أي «ما به يكون الكلام نصا» (6) وقادت أبحاثها في اتجاهات مختلفة ونظرت إلى النصّ، موضوع البحث، من زوايا متعدّدة. من بين هذه الدراسات تلك التي قام بها «يوري لوتمان» ومجموعته من جامعة «تارتو» (Tartu)، والتي سعى فيها إلى تحديد جملة من السمات التي تميّز النص وهي: «التعبير» و«التحديد» و«الطابع البنائي» (7)؛ كما أكدِ على ضرورة اعتبار السياق

عندما نريد تحديد ماهية النصّ، إذ أننا لو أردنا التعامل مع نص بمعزل عن جملة العلاقات الخارجية، فإن «الأثر» (oeuvre) عموما يصبح خاليا من المعنى، ذلك أنّ مجمل الشفرات الفنية التي شحذت خلال الممارسة التاريخية، والتي تجعل النصّ نصّا ذا معنى، هي عناصر تنتمي إلى حقل العلاقات الخارج - نصيّة. والنصّ الفني يندرج ضرورة ضمن بناء «خارج - نصيّ» أكثر تعقيدا يؤلف معه نظام تعارض ثنائي. أما دي بوجران (Robert Allin de Beaugrand) ودريسلار (Wolfgang Dresslar) في كتابهما «مقدمة للنصوص اللغوية». فقد وضعا جملة من المعايير التي يحدد على ضوئها مفهوم النص من انه، كما جاء في البحث الرائع الذي كتبه سعد مصلوح حول أجروميّة النصّ، «حدث تواصلي يلزم لكونه نصّا أن تتوافر له سبعة معايير للنصيّة مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير» (8)، وهي سبعة: منها ما يتصل بالنص في ذاته، ومنها ما يتصل بمستعملي النصّ سواء أكان المستعمل منتجا أو متلقيا، ومنها ما يتصل بالسياق المادي والثقافي المحيط بالنصّ. وقد رتبها سعد مصلوح على النحو التالي، مستلهما في ذلك كتاب «دي بوجران» و «دريسلار» (9):

1) السبك (التماسك) * Cohésion
2) الحبك (الانسجام) * Cohérence

تتصل بالنص في ذاته

3) القصد Intentionalité
4) القبول Acceptabilité

تتصل بمستعملي النص

5) الاعلام Informativité

6) المقامية Situationnalité تتصل بالسياق الثقافي والمادي

7) التناص Intertextualité

وستتضح بعض هذه المعايير شيئا فشيئا كلما تقدّمنا في فحص المسائل والقضايا المرتبطة بمفهوم النص وطرق دراسته كما عرضها «فان دييك».

يرى «فان دييك»، كما سبق، أنه يجب تمييز **مستويات** مختلفة للوصف في دراسة النصّ. وهكذا يمكن وصف الوحدات الصوتيّة، وشكل الكلمات، والبنية الجملية، ومدلول هذه الوحدات المختلفة سواء في إطار الجملة أو في إطار النصّ. هذه المستويات المختلفة توصف بواسطة علوم الصوتيات والصرف والنحو والسيمياء.

لقد اكتفى النحو واللسانيات التقليدية أغلب الأحيان بوصف الجمل من حيث تكوينها النحوي. أما علم النصّ فهو يمضي، كما يؤكد «فان دييك»، أبعد من ذلك ويستخدم وصف الجمل مادة خاما لوصف النصوص.

يمكن في مرحلة أولى اعتبار ملفوظ نصّي **سلسلة جمل**، هذه السلسلة يسميها «فان دييك» **مقطعا**. هذا المقطع يخضع لنظام خاص. تكون مقاطع مقبولة وأخرى غير مقبولة عندما تكون غير مفهومة مثلا. وتكون مهمة نحو النصّ، من بين مهام أخرى، ضبط الشروط التي يجب أن تتوفر في المقطع ليكون **مقبولا**. لنأخذ المقاطع التالية:

[1] *ذهبت إلى القسم. استمعت به إلى الدرس*

[2] *استمتعت به إلى الدرس. ذهبت إلى القسم*

[3] *ذهبت إلى القسم. تصاعدت حمم البركان. عض الكلب السارق. تبادلنا عناوينا*

نلاحظ أن الجملتين كما جاءتا في المثل [1] تكونان مقطعا مقبولا؛ فنحن نفهم معنى النصّ ونعتبر المقطع تعبيرا مقبولا عن عدد من الأحداث. أماّ نظام الجملتين في المثل [2] فهو غير سليم، وهذا إذا اعتبرنا أن الجملتين في المثل [2] تحيلان على نفس الأحداث التي يعبر عنها المثل [1]، وعندما نقرأ الجملة الأولى من المثل [2] نصطدم مباشرة بمشكل الإحالة في حرف الجر المقترن بضمير: (به). أما المثل [3] فهو غير مقبول لسبب آخر: إن **معرفتنا بالعالم** واللغة تدعونا إلى اعتبار أن الجملة الأولى والثانية والثالثة والرابعة لا علاقة لها ببعضها البعض، أي أنّ المثل [3] هو، بعبارة أخرى، **غير منسجم**، وهذا رغم سلامته النحويّة.

رأينا أن دراسة النص تتطلب تمييز مستويات مختلفة للوصف من بينها:

## الجانب الصوتي والصرفي

لا يرى «فان دييك» ضرورة للحديث مطوّلا عن البنى السطحية (الشكل الصوتي، شكل الكلمات، البنية التركيبية للجمل) لأن خصائص النصّ في هذا المستوى لا تتميز دائما تميزا واضحا عن خصائص الجمل المركبة. وفي هذا المجال يدعو إلى توجيه الاهتمام في تحليل الأصوات إلى الايقاع والنبرة التي تميّز عناصر المقاطع الجملية والمواقع التي تحتلها الكلمات في تلك المقاطع

ومختلف أدوات الربط بين الجمل التي تستخدم فيها. كما يجب توجيه الاهتمام إلى الجرس الذي يمكن أن يميز بعض الكلمات وتأثيره الممكن في المستمع وايحائه بالمعنى الخ...

في المقطع التالي:

[4] *أنا ذهبت إلى الملعب، أما علي فقد ذهب إلى السينما.*

يبرز الضمير أنا والاسم علي بروزا لا نجده في جمل منفصلة من ناحية، ولا أثر فيها للتباين من ناحية أخرى. ويبدو هنا أن الخصائص الصوتية والصرفية للنصوص هي أغلب الأحيان تعبير عن علاقات معنويّة ضمنيّة، وهو أمر أكده بواسطة حجج مقنعة، خاصة بصدد الأصوات ودلالاتها لا سيما في الشعر، كل من جون كوهين في دراسته حول بنية اللغة الشعرية (10) ويوري لوتمان في دراسته حول بنية النص الفني (11). وتمنحنا بعض قصائد الشعر الشعبي الجزائري أمثلة طيبّة في هذا المجال. في إحدى قصائد الشاعر الشعبي «الشيخ سماتي» المشهورة نجد المقطع التالي:

ضرّي يا ناس واش دواه

وادركني ضرّ ما ننواه

الله الله

على القوال ياحسراه

يموت بداه

عالجته لا فهم معناه

طبيب ان جـاه

الطولقي هجرني واه

ذا العار علـاه ...

يتميّز هذا المقطع كما نرى بخاصية صوتيّة تتمثل في تكرار الصوت المعبرّ عنه بالرسم **آه**. وهو صوت لا يلعب هنا دور القافية فحسب، بل يلعب دورا واضحا في جلاء وتجسيد المعنى الذي يعبرّ عنه المقطع، وهو الألم الذي يشعر به الشاعر، ألم المرض والألم الناجم عن احساسه باهمال «الشيخ بوعمره» له. وهو شكل من أشكال التعبير الأيقوني الذي ينقل هنا نقلا الصوت المعبّر عن الألم ويدرجه ضمن الجملة الشعرية بل يغمرها به.

## الجانب التركيبي

إن علم التراكيب يصف في المقام الأوّل بنية الجملة؛ وعليه قد يبدو لأول وهلة أن نحو النصّ لن تكون له وظائف شديدة التميّز عن نحو الجمل. كما يبدو أن «بنية» المقاطع الجملية يمكن وصفها وصفا شافيا باعتبارها جملا تتتابع تتابعا خطيا: ‹جـ1، جـ2، ... جـ ن›. لكن الجمل التي تنتمي لمقطع جملي تتميّز، كما يرى «فان دييك» وكما تؤكده اللسانيات النصيّة، بعدد من الخصائص التركيبية التي لا نجدها في جمل معزولة. وإنّ نحو الجمل ليبدو غير كاف تماما عندما نريد دراسة النصوص ليس من حيث انتماؤها لأنواع مختلفة من أنواع التعبير فحسب، بل كذلك من حيث هي كلّ لا يمكن دراسة أي وحدة من وحداته بمعزل عن المجموع وعن الوحدات الأخرى التي تتبادل التأثير معها، ذلك أننا في هذه الحالة لن نزيف الكل فحسب، بل سنزيف معنى تلك الوحدة وماهيتها الحقيقية

التي اكتسبتها من موقعها داخل ذلك الكل، ومن علاقتها بمختلف الوحدات الأخرى، ومن علاقة ذلك الكل وتلك الوحدات بنظم خارجة عنها ولكنها مرتبطة بها بأكثر من رباط.

بعد هذه الملاحظة العامة، ها هي بعض الأمثلة التي تتعلق بالمقاطع:

[5] *أنا ذهبت إلى المدرّج. لا محمد. هو كان يريد الذهاب إلى المكتبة.*

[6] - أ - من جاء؟

- ب - محمّد

إن الجمل الثانية من هذين المقطعين إذا أخذت بمفردها تكون ناقصة، على الأقل من وجهة النظر التركيبية. هذا يعني أننا لا نقدر على فهمها إلا بتأويل الجمل السابقة. وإن مفهوم «النحوية» ليبدو في الواقع مفهوما **نسبيًا**. إن جملة ما لا تتوفر فيها «النحوية» إذا نظرنا إليها معزولة، يمكن أن تتوفر فيها «النحوية» إذا نظرنا إليها في اطار جمل أخرى. وهو مبدأ عام يصح خاصة على المستوى الدلالي. وإن ضرورة التحليل التركيبي للعلاقات بين الجمل ليس مفيدا إذا كان الأمر يتعلق بتحليل الجمل الغامضة فحسب، بل هو ضروري لإضفاء بنية تركيبية واعطاء تأويل صحيح لجمل مثل الجمل التالية:

[7] *بمنشار فكر علي*

[8] *قال محمّد باتجاه البحر*

هاتان الجملتان الغريبتان لأوّل وهلة تصبحان مفهومتين تماما عندما تجيئان بعد الجملتين الاستفهاميتين التاليتين:

- *بماذا قطعت الشجرة؟*

- *أين ذهب الصيّاد؟*

عندما نطلع على هاتين الجملتين، ندرك أن الحرف (بـ) في الجملة [7] والكلمة (باتجاه) في الجملة [8] لا يرتبطان بالفعلين المجاورين لهما، بل بالفعلين الموجودين في الجملتين السابقتين؛ وهي أفعال لا حاجة لتكرارها في ظروف محدّدة.

هذه بعض الأمثلة عن بنى تركيبيّة يجب أن تدرس في **اطار نصّي**. وتوجد أسباب أخرى لدراسة البنية الجملية في اطار «المقاطع» لا سيما عندما تتكرّر الاشاريات (Déictiques) والضمائر والأسماء الموصولة التي تشير إلى نفس الأشياء التي تشير إليها الجملة أو الجمل السابقة. وقد بينت دراسة سعد مصلوح، التي أشرنا إليها سابقا، حول قصيدة المرقش الأصغر: «لابنة عجلان في الجوّ رسوم» الدور الكبير الذي أدته الضمائر والأسماء الموصولة في سبك النصّ وتحقيق تماسكه من حيث المبنى وانسجامه من حيث المعنى.

من الملاحظات السابقة يخلص «فان دييك» إلى أنّ مفهوم **المقطع الجملي** يبدو صالحا لوصف الملفوظات اللّغويّة وصفا ملائما.

## الجانب الدلالي

رغم أهميّة البنية السطحية للنصوص (التماسك أو السبك) فإن الخصائص التي تميّز النصوص أكثر من غيرها هي تلك التي نجدها على المستوى الدلالي والمستوى التداولي؛ أي أنّ وصف المقاطع الجمليّة يتم أساسا من حيث العلاقات

السيميائية بين الجمل. هذه العلاقات في رأي «فان دييك» يمكن أن تكون من صنفين:

- علاقات مرجعية (Référentielles)
- علاقات معنويّة

نقول عن جملتين أو جمل إنّها مرتبطة «مرجعيا» إذا كانت تحيل إلى عناصر مرجعية مرتبطة ببعضها بعلاقة تطابق أو تماثل. ذلك هو الأمر بالنسبة للجملتين الثانية والثالثة من المقطع [5] المرتبطتين بعلاقة مرجعية، إذ أن «محمد» و «هو» يعينان الشخص نفسه.

ويمكن أن توجد علاقات معنويّة بين الجمل كما في المثلين التاليين:

[9] *أنا ذهبت إلى القسم. عليّ ذهب إلى المكتبة*

[10] *أنا ذهبت إلى القسم، أماّ عليّ فقد ذهب إلى المكتبة*

فالجزء الأوّل من المثل [9] مرتبط بالجزء الثاني من حيث المضمون بفعل العلاقة المعنويّة الموجودة بين القسم والمكتبة أو بين الذهاب إلى القسم والذهاب إلى المكتبة، فالعبارتان يتم ادراكهما على أنّهما تعبير عن شكل من أشكال التحصيل العلمي.

وإنّه لمن المفيد التمييز بين العلاقات المعنويّة الموجودة بين الجمل أو أجزاء من هذه الجمل، المأخوذة **ككل**، والعلاقات المعنويّة الموجودة بين العناصر المكوّنة لهذه الجمل أو أجزاء منها. فمن الواضح أن العلاقة بين «محمد» و«هو» في المثل [5]، أو بين «القسم» و«المكتبة» في المثل [9] هي علاقة موجودة بين بعض عبارات جمل المقطع. لكن من الضروري اعتبار العلاقة بين الجمل **ككلّ**؛ ذلك أنّ النظر إلى

مجرّد علاقة بين عبارات أمر لا يكفي كما لا يظهر في المثال التالي:

[11] محمد ذهب *إلى السينما*. *هو سافر في الباخرة*. *هو ولد في وهران*.

رغم أن محمد هو العنصر المرجعي المشار إليه في الجمل الثلاث، إلا أنّ المقطع **غير مقبول**. وندرك تلقائيا أن سبب عدم القبول هذا يعود إلى كون الأحداث التي تحيل إليها هذه الجمل لا علاقة لها ببعضها البعض، على الأقل في غياب شرح إضافي. وهذا يعني أن الجمل يجب أن ينظر إلى علاقتها ببعضها البعض في **كليتها**، وليس في جزء من أجزائها فحسب. وهذا ما نجده في المثل التالي:

[12] *أهانني الأستاذ*. *لهذا لم أحضر درسه*.

(والشيء نفسه بالنسبة للمثال [1]). إن الجملة الأولى في المقطعين تمثل شرطا لظهور الثانية؛ ذلك أن الجملة الأولى تحيل إلى حدث يمثل شرطا ضروريا لقيام الحدث الذي تحيل إليه الجملة الثانية، إن الحدث الأول في المثل [1] يجعل الحدث الثاني **ممكنا**؛ أما الحدث الأول في المثل [12] فهو **سبب** لوقوع الحدث الثاني. هذه العلاقات الشرطية بين الجمل التي تعبر عن أحداث يمكن أن تكون ضعيفة، فتجعل حصول شيء أمرا **ممكنا**؛ ويمكن أن تكون قويّة، فتجعل حصول شيء أمرا **محتملا** أو **ضروريا**.

إن جملة ما تحيل إلى حدث أولا تحيل. وإن الواقع التاريخي الذي نعيش فيه هو جملة أحداث ووقائع يسميه «فان دييك» **العالم الممكن**. ويمكن أن نفترض أنّ هذه الأحداث كان يمكن أن تكون مختلفة جزئيا. هناك إذن عوالم ممكنة أخرى. وان الأحداث التي تشير إليها الجمل المتتابعة في مقطع، هي أحداث تنتمي **غالبا**

إلى نفس العالم الممكن (العالم الواقعي أو العالم الخيالي). وفي أحيان كثيرة أيضا، فإن الأحداث التي تشير إليها جمل من مقطع معيّن لا تنتمي لنفس العالم الممكن فحسب، بل لنفس الوضعية كذلك، أي لعالم ممكن في زمن خاص أو في عصر معين. ولتحديد هذه الوضعية يمكن أيضا تحديد المكان أو الفضاء الذي تقع فيه الأحداث.

هذه، في نظر «فان دييك» بعض الشروط التي يجب توفرها في مقطع جملي ليكون **مقبولا**، وهي شروط تتعلق بـ «انسجام» المقطع. وبما أن الأمر يتعلق هنا بانسجام بين جمل متتابعة داخل مقطع تحيل إلى أحداث مرتبطة فيما بينها (بعلاقة شرطية أساسا)، فإنه يمكن الحديث عن «انسجام خطّي». هذه العلاقات بين الأحداث ترافقها غالبا علاقات بين الأشياء والخصائص والأشخاص والأفعال التي «تنتمي» لهذه الأحداث.

هذا الانسجام لا يظهر بالضرورة بطريقة صريحة، من خلال التتابع الخطي للجمل، بل يمكن أن يبقى **ضمنيا**. يحدث هذا مثلا عندما تحتوي الجملة أو الجمل السابقة، بشكل ضمني، على قضية (proposition) لا يحتاج إلى التعبير عنها في النص:

[13] *ذهبنا إلى الملتقى. كان النقاش حادا.*

[14] *ذهبنا إلى الملعب. كانت المباراة ساخنة.*

رغم أن الجملة الأولى في كل مقطع من المقطعين لا تشير إلى النقاش ولا إلى المباراة فإن هاتين الكلمتين جاءتا معرفتين في الجملتين الثانيتين. وهذا يعني أنّ **معرفتنا بالعالم** تسمح لنا بإقامة العلاقة بين الملتقى والنقاش من ناحية، والملعب والمباراة من ناحية أخرى. وفي هذه الحالة، فإن الوصف السيميائي للنصوص لا

يرتكز على معاني الكلمات الحاضرة فعلا فحسب، بل **على أساس معرفي** أيضا. هذه المعرفة للعالم ترتبط خصوصا بوضعيات وأحداث وحالات «عادية» و«نمطية» (stéréotypés). تأسيسا على كل هذا نقول عن نصّ إنه منسجم عندما نؤوّله على أنه تعبير عن **وقوع محتمل للأحداث**. لكن إلى جانب «الانسجام الخطي» هناك أيضا «الانسجام الكلّي».

## المضمون الكلي للنص أو البنى الكبرى

لا يتم تحليل النص على مستوى المقاطع الجملية فحسب، بل على **مستوى أشمل** أيضا. إن المعنى الشامل للنصّ هو ما اصطلح على تسميته بالموضوعة أو التيمة (thème) والمفهوم النظري الذي يستخدم لوصف هذا المعنى الشامل هو مفهوم **البنية الكبرى**. وتتكون البنية الكبرى هي أيضا، مثل أي بنية سيميائية أخرى من قضايا مصوغة في جمل. والقضايا التي تتكوّن منها البنية الكبرى - أو ببساطة القضايا الكبرى - تعرض الأحداث نفسها في مستوى «أعلى» و«أكثر تجريدا» و«أكثر عمومية».

يمكن أن نصف حدثا بواسطة قضايا: < *«قصدت مطار هواري بومدين»، «قطعت تذكرة»، «سجّلت حقائبي»، «مررت إلى قاعة الانتظار»، «انتظرت مدّة خرجت مع المسافرين إلى مدرج الطائرة»، «صعدت إلى الطائرة»، «اخترت مقعدا جلست فيه»، «بعد مدة ارتفعت بنا الطائرة في الفضاء»، «حلّقت مدّة خمس وأربعين دقيقة»، «نزلت بعد ذلك في مطار وهران».* >. هذا الحدث يمكن تقديمه على مستوى أعلى بواسطة القضية التالية: «سافرت إلى وهران بالطائرة». هذه القضية هي في

الوقت نفسه موضوعة أو «تيمة» الحكاية التي قدمت فيها الجزئيات المتعاقبة للسفر بالطائرة. في البنية الكبرى حذفت جزئيات مختلفة مقارنة بجمل النص المذكور، ولم يحتفظ فيها إلا بالخبر الأكثر أهمية والأكثر تمييزا لطبيعة الحدث. وإن القراء، تبعا لمعارفهم واهتماماتهم وميولهم وأحكامهم، يختارون في النص العناصر التي تبدو لهم «هامة» و«دالة»؛ لهذا فإنّ البنية الكلية يمكن أن تختلف من شخص لآخر، لكن، رغم هذه الاختلافات، نلاحظ توافقا على مستوى **التأويل العام** لنصّ ما. ومن دون هذا التوافق الذي تحدده تقاليد الاتصال، يصبح التفاهم الضروري لتنقل الأخبار أمرا مستبعدا. وهكذا يمكن أن تختلف البنى الكبرى جزئيا من شخص إلى شخص آخر، لكنّ مبادئ تكونها تبقى رغم ذلك واحدة.

وترتبط البنية الكبرى بالقضايا المعبّر عنها في جمل النصّ بواسطة ما يسميه «فان دييك» **بالقواعد الكبرى**. هذه القواعد تحدد ما هو جوهري في مضمون النصّ المنظور إليه ككل. لذا، فإنّ القواعد الكبرى تحذف بعض الجزئيات ولا تبقى إلا الأساسي من المعلومات التي يتضمنها النصّ.

ويمكن تمييز مستويات مختلفة في البنية الكبرى لنصّ ما: يمكن تلخيص «الصفحة» الأولى من حكاية بواسطة قضيّة، لكن القضايا الكبرى المكوّنة من صفحة إلى صفحة، ومن فصل إلي فصل ...، يمكن اختصارها هي بدورها بواسطة القواعد الكبرى إلى قضايا كبرى «أرقى». والقواعد الكبرى الأكثر أهمية هي، حسب «فان دييك»:

- **الحذف (أو الانتقاء)**: ويتمثل في حذف كل القضايا الموجودة ضمن المقطع، والتي لا يمثل وجودها شرطا ضروريا لتأويل القضايا اللاحقة في المقطع.

- **التعميم**: تعويض مقطع قضايا بالقضية المتضمنة في كل قضايا المقطع كما

هو الحال في المثال التالي:

‹ «*علي يحفظ جدول الضرب*»، «*محمد يحفظ النشيد*»، «*فاطمة تراجع درس التاريخ*» ⇐ «*التلاميذ يراجعون دروسهم*» ›.

- **التركيب**: تعويض مقطع قضايا بقضية تحيل عموما إلى نفس الحدث الذي تشير إليه قضايا المقطع في مجموعها، مثل السفر بالطائرة المشار إليه سابقا.

ولا يمكن لهذه القواعد الكبرى أن تعمل عملها إلا على أساس **معرفتنا بالعالم**: فنحن لا نستطيع تعويض التفصيلات المشار إليها في المثل السابق بمفهوم «السفر بالطائرة» إلاّ إذا كنا نعلم بأن هذا السفر يستتبع كل العمليات المشار إليها من ذهاب إلى المطار، وقطع للتذكرة الخ... ومن ناحية أخرى، فإنّ مفهوم البنية الكبرى مفهوم **نسبي**: إن قضية ما ليست قضية كبرى في حدّ ذاتها، بل هي كذلك بالنسبة للقضايا الصغرى التي اشتقّت منها بواسطة القواعد الكبرى. وهذا يعني أن قضية كبرى في نصّ ما قد تكون قضية صغرى في نصّ آخر.

## الشكل التخطيطي العام للنص أو البنى الفوقية

يوجد، بازاء البنية المعنويّة الشاملة، نوع آخر من البنى الشاملة وهو ما أصطلح على تسميته **بالبنى الفوقية** (superstructures). لا تتعلق هذه البنى، في رأي «فان دييك»، بمضمون النص مباشرة بقدر ما تتعلق بتمفصله الداخلي الشامل. إن مفهوم البنية الفوقية في مجال علم النصّ مفهوم حديث نسبيا، ولا توجد بعد نظرية عامة عن البنى الفوقية النصية؛ لكن توجد على العكس من ذلك نظريات جزئية مختلفة تتعلق بأنماط نصّية محددة كالحكاية على سبيل المثال.

يمكن الحديث في هذا المجال عن «الأشكال النصية» (formes textuelles) أو «النماذج النصية» *** وإن أنواع البنى الفوقية التي درست أفضل من غيرها هي دون شك النموذج السردي والنموذج البرهاني. وواضح أنّ هذه النماذج أو الأشكال التخطيطية العامة (schemas) مستقلة إلى حدّ ما عن المضمون (الشامل) للنصّ، ذلك أننا نستطيع استخدام نفس النماذج السردية لحكايات تدور حول موضوعات مختلفة تماما. ويمكن قول الشيء نفسه بالنسبة لنماذج البرهنة. لهذا يمكن القول إن البنى الفوقية تمثل، بشكل من الأشكال «نحوا» شاملا للنص في كليته. ويمكن وصف هذه البنى من حيث هي «عناصر تكوينية» و«قواعد خاصة لتركيب» هذه العناصر يمكن مقارنتها بتلك المعمول بها في الوصف النحوي للجملة.

لكن نوع «القواعد» و«المكونات» المذكورة يبيّن لنا أن التحليل يتم في هذه الحالة خارج إطار النحو في مفهومه الصارم الضيق. إنّ حكاية تتكون **من عرض** (Exposition) يتبعه **تعقيد** (Complication) يتبعه حل أو **انفراج** (Résolution)؛ هذا الحل قد يتبعه **تقويم** (Evaluation) ثم **مغزى** ما (Morale) . هذه هي البنية الفوقية التي أبرزتها الدراسات والتحليلات المتعلقة بالنص السردي. وقد توجد مكوّنات صغرى أخرى. كما أن بعض المكوّنات مثل التعقيد (وبالتالي الحلّ) يمكن أن تتكرر: ونكون عندها أما قواعد أو مكوّنات متكررة (كما هو الأمر في رواية الحوّات والقصر التي درسناها في مقال سابق). وفي النصوص البرهانية والمقالات العلمية نجد نماذج مكوّنة من عناصر وقواعد تركيب متشابهة ليس هنا مقام ذكرها وقد نبيّنها في مقال لاحق. وعموما، فإنّ النصوص التي لها طابع اصطلاحي بارز (Conventionnel) أو التي تخضع لبعض القواعد يمكن أن تتوفر على **بنية فوقية نموذجية**. هذا النموذج أو هذا الشكل التخطيطي العام (schema) لا يلعب دورا في تنظيم المضمون الشامل

(البنية الكبرى) للنص فحسب، بل يحدد في الوقت نفسه نوعه (نص سردي، برهاني الخ...)؛ مع ملاحظة أن مختلف أنواع النصوص هذه لا تتجلى في صورة خالصة (سردية أو برهانية أو وصفية الخ...) بل انها تتألف أحيانا كثيرة من عناصر غير متجانسة يختلط فيها السرد بالوصف والبرهان والتفسير الخ... مع وجود عنصر غالب. ومثل البنى الكبرى، تلعب البنى الفوقية دورا هاما في المعالجة الادراكية للنصوص إنتاجا وفهما وتخزينا واستعادة.

على أنّ البنى الفوقية لا تخضع دوما لبنية «عادية» أو «نموذجية» كما تحددها القواعد، بل يمكن في الواقع أن تستبعد بعض العناصر (مثل المغزى في الحكاية)، أو يغيّر ترتيب بعض العناصر وتسلسلها. وهو تغيير نجده في النصوص الأدبيّة خاصة حيث يمكن أن تنطلق الحكاية من الحل ليقدّم بعد ذلك عنصرا العرض والتعقيد.

ولا يمكن القول بصورة أكيدة أن كلّ أنواع النصوص تحتوي علي بنية فوقية خاصة بها. فالدراسة المستفيضة لمختلف أنواع النصوص هي التي يمكن أن تؤكد أو لا هذه الظاهرة. وتوجد من جهة أخرى بنى فوقية لا تتعلق بالمضمون الشامل للنصّ بل تتعلق بأفعال كلامية أو مقاطع من أفعال كلامية كما في المحادثة مثلا (conversation) : إن محادثة عادية تتكوّن غالبا من العناصر التالية: تبادل التحية، تقديم لموضوع الحديث، موصوع الحديث، إنهاء موضوع الحديث، بداية انهاء الحديث، الانهاء الفعلي له، تبادل التحية.

## أسلوب النصّ

يقال عادة عن جمل أو نصوص إنها تتميّز بأسلوب معيّن. ونحن نتحدث عن أسلوب نصّ معين عندما تضفي بعض البنى على النصّ طابعا خاصا أو أنها

تفرّده وتميّزه عن نصوص أخرى. وقد تسبغ هذه الخصوصية أحيانا كثيرة على أنواع معينة من النصوص (النوع السردي، النوع المسرحي ..) أو كتابات مؤلف معيّن أو نصوص ثقافة أو عصر بعينه...

يرى «فان دييك» أن وصف وتحديد مقولة الأسلوب هذه يرتكز على مفهوم التنويع (variation) . ذاك هو الأمرمثلا بخصوص مضمون النصّ وعلاقته بالأسلوب. فإذا تمّ التعبير عن المضمون نفسه بطرق مختلفة، فاننا نتحدّث عن تنويعاتٍ أسلوبيّة. ويختلف رأي «فان دييك» هذا اختلافا واضحا عن رأي «يوري لوتمان» الذي يؤكد أن أي تغيير أسلوبي يؤدي ضرورة إلى تغيير في المضمون(12).

هذه التنويعات الأسلوبية التي يتحدث عنها «فان دييك» قد تكون، في نظره، **مقصودة** أو **غير مقصودة** وقد تكون **وظيفية**. إن جانبا كبيرا من خصائص استخدام اللغة لا يخضع لمراقبة الوعي. وهكذا، فإن أيّ متحدث له ميول شخصية تلقائية لبعض الأشكال التعبيرية مثل استخدام كلمات بعينها وتركيب خاص للجمل إلى حدّ أننا يمكن أن نتوقع ظهور هذه الكلمات والتراكيب عنده انطلاقا من دراسة كميّة لأفعاله الكلامية السابقة.

أما الأسلوب **الوظيفي** فهو، على العكس من ذلك، مقصود قصدا. وفي هذه الحالة، فإنّ المتكلم يستخدم تنويعات أسلوبية تؤدي وظيفة محددة في **سياق** محدد. يمكن أن يكون هذا السياق **نفسيا** في المقام الأول. وفي هذه الحالة فإن اختيار الكلمات وبنى الجمل والمقاطع الخ.. يرتبط بحالة المتكلم النفسية. والموقف والانفعالات التي يريد التعبير عنها بهدف دفع القارئ أو المستمع إلى تأويل تلك الخصائص الأسلوبية **كعلامات** دالة على حالته النفسية في وقت من الأوقات.

ومن جهة أخرى، فإن تنويعة أسلوبية يمكن أن تكون تعبيرا عن **سياق اجتماعي**. ومعلوم أنّ الأسلوب الذي يستخدم في حديث ودي بين أصدقاء يختلف عن الحديث الذي يمكن أن يتم في الشارع مع أشخاص لا نعرف شيئا عنهم أو خلال اجتماع رسمي أو خلال مرافعة في المحكمة الخ... هذا الاختلاف لا يظهر على مستوى اللغة المستخدمة أو الصيغ فحسب، بل في طريقة النطق أيضا؛ والتي تشي بأوضاع وميول اجتماعية معيّنة كما بينته بصورة مقنعة بعض دراسات «وليام لابوف» (W. Labov) السوسيو - لغوية (13)، كما يظهر على مستوى علاقات «الانسجام» والبنية الشاملة للنصّ الخ...

ويشير «فان ديك» إلى أن مفهوم البنية الأسلوبية المتميّزة لنص ما هو مفهوم نسبي، ولا يمكن التعرف على هذه الخصوصية إلا بالنظر إلى الأنماط الموازية من أنماط الاستعمال اللغوي في وضعيات مختلفة لكن «بمضمون» مماثل، وكذلك بالنظر إلى السياق النفسي والاجتماعي؛ كما أنّ هذه **البنية الأسلوبية** لا يمكن تحديدها إلا بالنسبة إلى الأنماط والتقاليد السارية.

## النصّ والسياق

إننا لا ندرس الملفوظات اللغوية، وبالتالي النصوص، من حيث بنيتها فحسب، بل كذلك من حيث **وظائفها**. وإنّ دراسة النصّ لا تسعى إلى التعرف على «الأشكال» و«المضامين» المحتملة للنصّ فحسب، بل كذلك **الوظائف** الممكنة التي قد يؤديها هذا النصّ بواسطة هذا «الشكل» وهذا «المضمون» المتميّز.

ولا يمكن أن نتعرف على هذه الوظائف إذا لم نعاين السياق الذي يتم فيه الفعل اللغوي. هناك على سبيل المثال السياق التداولي، والسياق المعرفي -

الادراكي، والسياق النفسي، والسياق الاجتماعي، والسياق الثقافي... وهي سياقات يجب أن يهتم علم النصّ بها كلها في علاقتها الجدلية بالنصّ من ناحية، وفي علاقاتها ببعضها البعض وكيف ارتسمت هذه العلاقات المتداخلة في النص من ناحية أخرى. ولعل السبرنطيقا، التي تهتم بظاهرة **التعقيد** كموضوع للدرس وتسعى إلى شحذ الأدوات التي تسمح بدراسة الظواهر التي تؤثر فيها مئات وآلاف العوامل، أن تساعد مستقبلا في جلاء هذه الظاهرة المعقدة، الشديدة التعقيد، التي هي النصّ والنصّ الأدبي على وجه الخصوص، وأن تساعد على مقاومة اليأس من الدراسة العلمية للنصوص الذي ينتاب الدارسين بين الفينة والأخرى عندما يواجههم هذا التعقيد، ولا يستطيعون دراسته بواسطة أدوات جعلت لدراسة الظواهر «البسيطة»، فيجنحون إلى «الشعر» والدراسة الانطباعية ويعرضون عن الدرس «العلمي».

ولن نستطيع في هذا العرض الوصفي السريع الإحاطة بكل السياقات التي ذكرها «فان دييك»، إنما نشير إلى أهميتها فقط، ثم نتحدث بإيجاز شديد عن بعضها مثل السياق الادراكي وهو الذي يتعلق بفهم النصّ وتأويله. يرى «فان دييك» أن عملية الفهم تتمثل عموما في تحليل المعلومات التي تنقلها البنية السطحية للنص و«ترجمتها» إلى مضمون. وتتمثل مهمة المتلقي، وهو يسعى إلى فهم النصّ، في إقامة علاقة بين القضايا التي تعبّر عنها سلسلة الجمل في النصّ. وفي هذا المجال لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار الجوانب التالية:

1 - يضطر **المتلقي** لإقامة هذه العلاقة إلى الاستئناس **بمعرفة العالم**؛ وهذا يعني أنه يجب، إنطلاقا من المعارف المخزنة في ذاكرته، أن **يختار** قضية أو قضايا ويقوم، على أساسها، بالربط بين قضايا النصّ.

2 - إنه لمن الأهمية بمكان بالنسبة لعملية الفهم أن نقوم **بتنظيم** الكمية الهائلة من المعلومات التي يمكن استخلاصها من النصّ و**هيكلتها وتركيزها**؛ لهذا فإنّ البنى الكبرى التي سبق الحديث عنها تلعب دورا مركزيا في معالجة النص بهدف إدراكه. إن القارئ لا يستطيع عموما أن يسترجع النص كلمة كلمة ولا حتى جملة جملة (عندما يقرأ رواية مثلا)؛ وهو بعد أيام أو أسابيع من قراءة النص لا يتذكر إلا الموضوعات الأكثر أهمية فيه. وبعبارة أخرى، فإن البنية الكبرى للنصّ هي التي تقاوم النسيان بدرجات متفاوتة.

وحتى عندما يتجه الاهتمام، خلال عملية القراءة، نحو جزئيات الكلمات والجمل، فإننا رغم ذلك نسعى دوما إلى ربط هذه الجزئيات ببعضها وادراجها ضمن «وحدات» أكبر وأشمل، أي ضمن قضايا كبرى تقوم بتنظيم وتقليص المعلومة التي ينقلها النصّ وتركيزها في الذاكرة. والمبدأ العام الذي يلعب دورا في تخزين واستحضار معلومة نصيّة هو **القيمة البنوية** لتلك المعلومة: فكلما كانت قضية ما مرتبطة بعدد كبير من القضايا كلما كانت قيمتها البنوية أكبر وكلما كان استحضارها أسهل.

من جهة أخرى، وكما سبقت الإشارة إليه، يمكن أن يؤوّل نفس النصّ تأويلا شاملا مختلفا من طرف قراء مختلفين، في وضعيات مختلفة، بفعل جملة من الشروط المتداخلة التي تخلق استعدادات معيّنة لدى الشخص يسميها «فان دييك» «**الاستعداد الادراكي**». هذا الاستعداد لا يفعل فعله إلا في لحظة بعينها (لحظة القراءة والفهم)؛ أما بعد تلك اللحظة فإن استعداد نفس القارئ في مواجهة نفس النصّ قد يتغير.

يتشكل هذا «الاستعداد الادراكي» من معارفنا وأفكارنا وآرائنا في لحظة بعينها. وقد سبقت الإشارة إلى أن الفهم النصّي يتعلق إلى حدّ بعيد بمعرفتنا للعالم. هذه المعرفة للعالم، داخل مجموعة لغوية معينة، تكون ذات طابع عام وعرفي. فنحن نعرف مثلا كيف نسافر بالطائرة أو كيف نقصد قاعة الدرس الخ... هذه **الكتل** من المعارف والمعلومات الثابتة والمنمّطة يسميها «فان دييك» «أطرا» أو «هياكل» (charpentes) عامة. هذه الهياكل تلعب دورا شديد الأهمية في صياغة وكذا في تأويل النصوص التي تحيل إلى أحداث كتلك الأحداث المذكورة سابقا.

ويتحدد إدراكنا للنصوص كذلك **بأهدافنا ورغباتنا وميولنا**. هذه العوامل تساهم في تحديد ما يراه القارئ ذا أهمية في النص، أو ما هو مهم بالنسبة إليه. عندما نكون متعلقين بموضوع خاص بفعل اهتمام أو ميل خاص، فإننا نقوم بتحليل معرفي للنصّ بحسب ذلك الموضوع الذي يحظى باهتمامنا، وتقدم لنا الدراسة التي نشرها جابر عصفور في أحد أعداد مجلة «فصول» عن نقاد نجيب محفوظ مثلا طيبا في هذا المجال حيث خلص الباحث، بعد دراسة وصفية لجملة من كتابات هؤلاء النقاد القادمين من مشارب شتى إلى اختلاف تلك الدراسات في تفسير العمل الواحد، وأرجع ذلك إلى أن نقد نجيب محفوظ لم يكن ينفصل عن صراع «أنظمة اعتقاد» تقع خارجه. لكن ما يجب ملاحظته هو أن هذه الميول والرغبات لا تشتغل اشتغالا واعيا دائما.

## السياق الاجتماعي

من بين السياقات التي يتعين مساءلتها لمعرفة الكيفية التي ينشأ النصّ ويمارس تأثيره بها السياقُ الاجتماعي. ذلك أن الأفعال الكلامية، والنصّ فعل

كلامي، هي أفعال اجتماعية؛ فهي تنتج في سياق **تفاعل اتصالي**. هذا التفاعل يتم في اطار وضعيات اجتماعية. وهي وضعيات اجتماعية «فريدة من نوعها» من جهة، ولكنها من جهة أخرى تحمل خصائص ذات طابع عام، بل عرفي. هذه الوضعيات هي، في المقام الأول، وضعيات نمطية تخضع إلى هذا الحد أو ذاك إلى قواعد تظهر بصورة مطردة مثلا في الأسرة أو في الشارع أو في المقهى أو في المحكمة أو في القسم أو في المستشفى الخ... يقسم المشاركون في هذه الوضعيات عموما إلى فئات من حيث دورهم ووظيفتهم وموقعهم (الأب، الأم، الابن، الصديق، المار، الزبون، المتهم، المحامي، الأستاذ، الطالب، الطبيب، المريض ...). ولكل فئة من المشاركين، بالنسبة لوضعية نمطية، يوجد عدد محدد نسبيا من الأفعال الممكنة وكذا الأفعال الكلامية الممكنة، وبالتالي النصوص الناتجة عن هذه الأفعال الكلامية. وبعبارة أخرى، فإن بنية الوضعية الاجتماعية، أي السياق الاجتماعي، يحدد أيضا الخصائص التي يمكن أن تميز النصوص. فالاحترام في بعض الوضعيات يصبح هو السائد مع استعمال أدوات التعظيم مثل أنتم، سيادتكم الخ... بينما تصبح بعض الأفعال الكلامية غير ممكنة في وضعيات معينة: إن الأوامر مثلا في وضعية يتحدث فيها مؤمن إلى اللّه لا يمكن ورودها ليس لأنّ القواعد النحوية أو الصرفية (استعمال صيغة الأمر بمعنى الأمر) لا تجيزها؛ بل لأن الوضعية الاتصالية لا تسمح بذلك. إن طبيعة النصّ وطريقة صياغته لا تنشأ إذن من الامكانيات التي تتيحها القواعد النحوية والتي يمكن أن تتولد عنها امكانيات لا تحصى للصياغة الجملية فحسب؛ بل إن جملة السياقات تساهم في التمكين لهذا الشكل أو ذاك ولهذه الطريقة أو تلك وقد تبطل امكانية ظهور هذه الصيغة أو تلك حتى وان كانت قواعد النحو تبيحها.

ولا شك أن تأثير الوضعية الاجتماعية في النصّ يتم من خلال الاستعداد الادراكي لمن يستخدم اللغة. إن تأويله للواقع الاجتماعي، مهما كانت نمطية هذا الواقع، يؤثر في الطريقة التي يتم بها انتاج النصّ أو تلقيه وإدراكه، من خلال آرائه ومواقفه ورغباته واهتماماته. فإذا كان إنتاج النصوص أو تلقيها يتأثر بالوضعيات الاجتماعية، فهو يتأثر أيضا بالسياق التاريخي - الثقافي الذي تنشأ فيه. ولذا يصبح من الضروري أيضا إدراك السياق الثقافي للإحاطة بالنصّ.

إن الرواية أو الاعلان الاشهاري أو المقال الصحفي أو العلمي مرتبطة كلها بالثقافة المعاصرة؛ لكن هناك وضعيات اجتماعية أخرى وبالتالي أنماط أخرى من النصوص، مرتبطة بعصور أخرى من ثقافتنا أو بثقافات أخرى. يظهر ذلك بوضوح في ارتباط الأساطير والخرافات وبعض النصوص الشعائرية والحكايات الشعبية والقصص ونصوص أخرى من نفس النوع بثقافة معينة وحقبة معينة. وإن ظهور علاقات اجتماعية أخرى وحضور أو غياب بعض المؤسسات، واستخدام قواعد وأعراف أخرى الخ... يؤثر في قيام أفعال كلامية من نوع جديد وبالتالي أنواع أخرى من النصوص.

وتوضح الدراسة الانتروبولوجية للنصوص وأشكال الاتصال المختلفة بصورة أفضل أثر هذا التنويع الثقافي في ظهور أنماط نصية مختلفة. فالمحادثات مثلا موجودة في كل الثقافات، لكن ما يختلف من ثقافة لأخرى هر الظرف والأشخاص الذين يمكن أن تتم بينهم هذه المحادثات. فالعلاقات العائلية مثلا والعلاقات داخل المجموعات، وكذا السن، والجنس، والمرتبة، والوضعية الاجتماعية الخ... كلها تحدد من يقول ماذا؟ لمن؟ ومتى؟.

وإذا كان النص يتأثر بنوع الثقافة، فإنه هو نفسه ظاهرة ثقافية يمكن أن تستنبط منه بعض النتائج عن البنية الاجتماعية للمجموعات الثقافية، وكذا عن المعارف والآراء والأفكار والأعراف والقواعد والقيم السائدة في مجموعة لغوية معينة. وباختصار فإن التحليل النصي هو سبيل يسمح بتحصيل نتائج هامة في إطار تحليل عام للثقافة.

إن النص كما نرى ظاهرة معقدة تؤثر في إنتاجها وتلقيها وادراكها عوامل متعددة ومتداخلة؛ ولهذا فإن التحليل المنهجي للنصوص كما يرى «فان دييك» لا يمكن أن يضطلع به اختصاص واحد، بل يجب تضافر عدّة اختصاصات ودراسته دراسة تركيبيّة.

## الهوامش:

1) Teun A. Van Dijk, le texte: structures et fonctions (Introduction élémentaire à la science du texte) in théorie de la littérature, Ed. Picard, Paris, 1981, pp 63-93

2) من بين هذه الدراسات:

- Some Aspects of text grammar, Mouton, la Haye, 1972
- Grammaire textuelle et structures narratives, in chabrol, 1973
- Text and contexte, Languran, Londres, 1977
- Macrostructures, Hills-dale, N.J.: Erlbaum, 1979

3) النص: بناه ووظائفه، ت. جورج أبي صالح، مجلة «العرب والفكر العالمي»، بيروت، العدد الخامس، شتاء 1989 .

4) Iouri Lotman, la structure du texte artistique, trad. du russe sous la direction d'Henri Meschonic, Gallimard, 1993, pp89-98.

5) Jean-Michel Adam, les textes: types et prototypes, Nathan, 1992, p 16.

6) سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري، مجلة «فصول»، يوليو أغسطس 1991، ص 153 .

7) Iouri Lotman, op. cit., pp 91-94.

8) سعد مصلوح، المرجع المذكور، ص 154 .

9) المرجع نفسه، ص 154 .

أفضل استخدام مصطلحي التماسك والانسجام عوض مصطلحي السبك والحبك اللذين استخدمهما سعد مصلوح، لأن مصطلحي التماسك والانسجام تم تداولهما بكثرة من طرف الدارسين، ولأنهما مفهومان، ولأن هناك تطابقا بين الصورة اللفظية والمعنى الذي يشير إليه كل من المصطلحين.

10) Jean Cohen, structure du langage poétique, flammarion, Paris, 1966, chapitre II .

11) Iouri Lotman, op. cit., pp 148-285.

** استخدم هذا المصطلح: «قضية» مقابل proposition كلّ من جورج أبي صالح في ترجمته المذكورة وأنور المرتجى في مؤلفه: «سيميائية النص الأدبي». لكني غير مطمئن تمام الاطمئنان لهذا المصطلح؛ ذلك أنّه مصطلح مرتبط بالمنطق أساسا وليس بالدراسات اللغويّة رغم أن بعض هذه الدراسات متأثرة تأثرا كبيرا بالمنطق الصوري واقتبست منه العديد من المفاهيم والمصطلحات. ورغم عدم اطمئناني لهذا المصطلح فإني لم أهتد بعد إلى غيره، ولذا أجدني مضطرا لاستعماله مؤقتا. و«القضيّة» هنا تعني مضمون الجملة أو ما يمكن أن نسميّه بالجملة العميقة.

*** استخدمت هذا المصطلح مقابل المصطلح الفرنسي "shémas textuels" لأن هذا المصطلح جاء في مقال «فان دييك» بمعنى النموذج أو ما يشير إليه بعض الدارسين بمصطلح prototype .

(12 Iouri Lotman, op, cit., pp 38-39.

(13 William Labov, sociolinguistique.traduction française, Ed Minuit, 1976